الشهيد الغريب

عثمان بن مظعون

للأستاذ محمد سعيد العريان

بات (عثمان بن مظعون الجمحىّ) ليلتَه يقلِّبُ الرأى ، ويستلهم الفطنة ؛ وإن الهمَّ ليصطرع فى رأسه ، وإن الشك ليتلجلج فى صدره ، وإن بين عقله وعاطفته لحرباً مشبوبة ومعركةً طاحنة

أحقٌّ ما يقول محمد بن عبد الله ؟ فما هذه اللاتُ والعُزَّى ، ومَناةُ الثالثةُ الأخرى ؟ وما دينُنا الذى أورثَنا آباؤنا ومضى عليه أسلافُنا ؟ أذلك الحقّ أم دين محمد ؟

إنى لأعرفه مذ كان — أصدقَ العرب حديثاً وأعظمَها أمانة ؛ أفيكذب حين يبدو الشيبُ فى صدغيه ، ثم لا يكون كذبه إلا افتراءً على الله . . . ؟

أما وربِّ الكعبة لقد جاء محمد بأمر عظيم ، إن يكن الصدقَ فما يقعد بى أن أكون فى السابقين اليه . . . ؟

فلما أسفر الصبح ، غدا عثمان على محمد فى مجلسه ليسمع منه ؛ فما هو إلا أن تلا عليه آياتٍ من الكتاب حتى اهتزَّت نفس عثمان ، ونفذت السماء إلى قلبه ، وغمره النور الآلهى ، وشرح الله صدره للاسلام ، فتمّت به عدةُ المؤمنين اثنى عشر . . .

وانطلق عثمان إلى أهله يدعوهم الى الله ؛ فما تلبَّث أخواه (قدامة وعبد الله) أن آمنا بما آمن ، وآمن من بعدهم بضع عشرة من بنى عمه وولده ؛ وإذا المؤمنون يزيدون ويكثرون ، وإذا الدين الجديد يتنقّل نبؤه فى همس من فم إلى أذن ، وينفذ فى رفق من قلب إلى قلب ، ثم يتدافع فى قوة حتى ينتظم الأربعين من شباب قريش وكهولها . ثم إذا هو من بعدُ نداءٌ عامٌّ ، يدعو إليه رسولُ الله من فوق (الصفا) ، فيفشو أمرُه ، ويتحدث به الناس ، وتتناقله القبائل ، وتتقاذفه فلوات شبه الجزيرة ؛ فما ينكر على محمد دعوته إلا الملأُ من أشراف العرب . . .

أكنتَ ترى السادة من قريش أهلَ الرفادة والسقاية — ينزلون عن جاههم وسلطانهم بهذا الهوان لمحمد ؛ أم تحسبهم يتركون ما كان يعبد آباؤهم مختارين انقياداً لهذا الداعى ؟

إن كبرياء النفس البشرية هو إيمانها بنفسها ؛ فما يغلبها على كبريائها إلا الايمانُ الأكبر ؛ وما إن تبلغ هذا الايمانَ إلا مقهورة عليه ، نازلة على سلطانه الأقوى ، منقادة له انقياد الرضى والاستسلام ؛ فاذا هى بلغتْ ذاك فقد تبدّلت النفسُ غير النفس ؛ فما تتكبّر إذ تتكبر بنفسها ولكن بما تدين ، وما تُفاخر حين تفاخر بخصائصها الذاتية ، ولكن بقوة العقيدة التى اعتنقت ؛ ويعود تعصُّبها لنفسها تعصباً للحق الذى آمنت به ، ومن ثمّ كانت مدافَعة العرب للنبيّ شديدة ، حتى إذا دمغهم الحق ونال من كبرياء أنفسهم ، إذا هم أبرُّ الناس به ، وأخلصهم فى طاعته ، وأشدّهم استبسالاً فى الدعوة إلى دينه والذياد عنه ؛ فكانت هذه المعجزة الانسانية الكبرى التى انبثق لها هذا الفجر الضاحك فأشرق بالسلام على البشرية كلها ، وامتدّ امتداد القدر يقبض راحته على الدنيا ، وانبسط انبساط الأمل يتناول كل ما فى الوجود ، ورسم للانسانية حدودَ سعادتها فى معانى الأخاء والمساواة والحرية !

* * *

تذامر الملأُ من أشراف مكة على محمد وأصحاب محمد ليفتنوهم عن دينهم ، فآذوهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، وأخذوهم بكل نكال ، حتى بلغوا من تعذيبهم الغاية ولم يبلغوا من مسلم أرباً ؛ ورأوا أمر الله أغلب من أمرهم فى هذه القلوب ، فمضوا يفتنُّون فى الكيد لهم ما يتورّعون من شر . وأيقن المستضعفون من المسلمين أن لا مقام لهم على هذا الهوان خوفَ الفتنة ، فجلوا عن أرضهم وديارهم فراراً إلى الله بدينهم . . . !

وانطلق عثمان بن مظعون يَقْدُم الفوجَ الأول مهاجرين إلى الحبشة ، تفيض أعينهم من الدمع حزناً ، أن تركوا أموالهم وأولادهم وعشيرتهم ؛ منهم الراجل قد ثقلت عليه نفسه ، والراكبُ قد ناء بما يحمل من همّه . حتى انتهوا إلى البلد الذى أرادوا

وأمنوا الفتنة ، يروحون ويغدون فى ظلّ مَلِكٍ كريم . أفتراهم على ذلك قد اطمأنّت بهم الدار ؟ ومن أين للغريب النازح عن أهله وأحبابه أن تستقرّ به الدار !

وطال بهم الحنين إلى بلدهم وإلى مشرق النور من وجه النبيّ

الكريم ، يستروحون من كل نسمة تهبّ من أرض الحجاز ذكرى تشوق وحنيناً يستجدّ . فما كذبوا أن جاءهم بشيرٌ باسلام قريش ، فقفلوا آملين مستبشرين ، وما منهم إلا مُشرقُ الوجه تحدّثه نفسه حديث المبعَد يوشك أن تستقرّ به النوى ويُلقى عصاه بين أحبّته وأهله وملاعب صباه !

ثم ما هي إلا أن دانوا مكةَ وبدت لهم أعلامُها وهبّت عليهم نسماتُها ، حتى انكشف لهم أن إسلام قريش لم يكن إلا أمنية . . . فألقوا على الوطن المهجور نظرةَ اللهفان فاتته المنى ، ثم لووا عنان الركب عائدين إلى المهاجَر ، وإن قلوبهم لتتلفت مودِّعةً وما سعدتْ باللقاء . . . !

وتحدّرت دمعتان على وجه عثمان إذ حضرته صورة المصطفى من الله ، فهفَت نفسه إلى لقائه ، وهان عليه ما يستهدف له من أذى المشركين ما دام سعيداً بطلعة النبي ، يراه في كل غدوة ورواح ، ويستمتع به كلما حلا له أن يستمتع

ودخل مكة في جماعة من المهاجرين مستخفين على حذر ورقبة ، حتى لقيه (الوليد بن المغيرة المخزومي) فاستظلّ بجواره

وأمن عثمان عُدْوانَ المشركين في حماية أعزّ قريش وأمنعها ، ومَن ذا يجرؤ أن يستبيح ذمّة الوليد في جاره ؟ فانه ليغدو ويروح لا يناله شر ولا يعرض له أحد بسوء . . .

وخرج عثمان مرة لبعض شأنه ، فاذا هو يبصر رجلا من أصحاب رسول الله مطروحاً على الرمضاء عارياً في حرّ مكة وقد حميت الظهيرة ، قد وُضعت على صدره صخرةٌ ينوء بها الفحل ، تعذيباً له بما آمن بمحمد !

واهتزت نفس عثمان مما رأى ، وبرَّح به الألم مما ينال أخاه المسلم فلا يستطيع له دفعاً ، فصغرت نفسه في عينه ، ومضى والهم يجثم على صدره أثقلَ من صخرة العذاب على صدر أخيه !

ومشى خطوات ، فاذا هو يشاهد شراً مما رأى : هذا أبوبكر ، يلقاه سفيهٌ من سفهاء مكة فيحثو عليه التراب ، وأولاء جماعةٌ من المشركين يشهدون سفاهة صاحبهم فيضحكون ويسخرون . !

وزاد الهم بعثمان ، وغشيته غاشية من الحزن والألم ! إنه ليحس التراب على رأسه ، وإنه ليشعر بمثل حرّ الرمضاء يشوي جسده هو ، وإن قلبه ليفيض غماً . إنه ليرى نفسه في جوار سيد قريش ، فما يمنعه ذلك أن يلقى من آلام النفس فوق ما يلقى صحابته من آلام الجسد !

وسار مثقل الرأس ، يحمل همّه على كتفيه ، ضيّق الخُطا كأنما يطأ الشوك . وإذا واحدٌ من المسلمين يلقاه فيحدّثه بما لقي (آلُ ياسر) من أذى بني مخزوم : لقد مات (ياسر) في العذاب وماتت زوجه (سميّة) طعيناً بيد أبي جهل ، وهذا (عمار بن ياسر) لا طاقة له بدفع ما يلقى من أذى بني مخزوم ، وما أراه إلا مُوشكا أن يلحق بأبويه . . . !

واشتدّ به الهم إذ سمع ما سمع بعد إذ رأى ما رأى ، ومضى يتحدّث إلى خواطره ، فاذا هو على الأمان والطمأنينة في عذابٍ أشدّ مما يلقى إخوانه المستضعفون . وقال لنفسه : والله إن غُدوّي ورواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني — لنقصٌ كبير في نفسي ! إنه والله الفرارُ من الأجر والمثوبة ، وإن لهم عند الله لمنزلةً هيهات أن يعزيني عن فقدها أنني في سلامة الأذى . بل إنه الفرار من حمل أثقال الايمان ، وإنه لأروَح لقلبي أن ألقى ما يلقى إخواني في الله ، فاني لأوشك أن يغلظ قلبي فما آمَنُ على نفسي من أوضار الشرك !

يا نفسي ، ما برهانُكِ على أنك مؤمنة إذا لم تحملي أثقال الحياة راضية ؟

ما دليلكِ على أنك قاسيتِ في سبيل دينك وإنك لتفرّين فرار المتمسك بدنياه ؟

ماذا قدّمتِ — يا نفس — لله من حظكِ وراحتك فيكونَ لك في الآخرة أن تدّعي وتستطيلي ؟

ألا إن الايمان هو أن ينالك ما نال المؤمنين ، وإن عذاب الناس لَهُوَ ثوابُ الله ، وما يَصْدُق الخبرُ عن بسالة الجندي إلا أن تشهد له جراحُه ، وما أنا رجلا إن لم أكن الآن رجلا . . !

ومشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له : « يا أبا عبد شمس ، وَفَتْ ذمّتُك ، وقد رددتُ اليك جوارك ! »

قال الوليد : « يا ابن أخي ، لعله آذاك أحد من قومي . . ؟ »

قال عثمان : « لا ، ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره . . ! »

قال الوليد : « فانطلقْ بنا إلى المسجد فاردد عليّ جواري علانيةً كما أجرتُك علانية »

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد : « هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جواري »

وقال عثمان : « صَدَق ، قد وجدته وفيا كريم الجوار ، ولكني قد أجبتُ ألا أستجير بغير الله ، فقد رددتُ عليه جواره ! »

ثم افترقا . وجلس عثمان يستمع إلى إنشاد (لبيد بن ربيعة) في مجلس من قريش ، فقال لبيد : « ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطل »

قال عثمان : « صدقْت ! »

قال : « وكلُّ نعيم لا محالة زائل ! »

قال عثمان : « كذبت . . . ! »

وأعاد لبيد ، وعاد عثمان يقول : « كذبت ؛ نعيم الجنـــة لا يزول أبداً »

فغضب لبيد وقال : « يا معشر قريش ، والله ما كان يُؤذَى جليسُكم ؛ فمتى حدث هذا فيكم ؟ »

قال رجل من القوم : « إن هذا سفيهٌ في سفهاء معه قد فارقوا ديننا ؛ فلا تجدْ في نفسك من قوله ! »

وردّ عليه عثمان حتى ثَرِيَ الشرُّ بينهما ، فقام الرجل فلطم عين عثمان فاخضرّت ، والوليد بن المغيرة بمجلس قريب يرى ما بلغ من عثمان ، فقال : « أما والله يا ابن أخي ، إن كانت عينُك عما أصابها لغنيّة ، لقد كنتَ في ذمة منيعة ! »

قال عثمان : « والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني لفي جوار من هو أعزُّ منك وأقدر ! »

فقال له الوليد : « هلمَّ يا ابن أخي ، فعُدْ إن شئت إلى جوارك ! »

قال عثمان : « لا ... ... ! »

وسار في سبيله عامر القلب بالإيمان ، طيّب النفس بما يبذل في سبيل الله ، قرير العين بأنه لم يلجأ إلا اليه . . .

* * *

ومضى المشركون في عدوانهم لا رفق ولا هوادة ؛ وآذى النبيَّ ما يلقى صحابتُه ، فدعاهم إلى اللحاق بمن سبق من المهاجرين إلى الحبشة

وخرج عثمان فيمن خرج ، عائداً إلى المهاجَر الثاني طاعةً لرسول الله . فأقام هناك ما أقام ، ضيّق النفس على سعة من العيش ، مكروباً من الغربة على الأمان والأذى !

وتصرّمت السنون عاماً بعد عام وهو يكافح الشوق والحنين ، حتى أُذِن له أن يفارق الحبشة بعد ست سنين ، لا إلى مكة الحبيبة إليه ، ولكن الى المهاجَر الثاني ، الى المدينة ، من مُغترَب الى مغترب . فما مضى عام وبعض عام على مقامه حتى ملّ غربتَه ، فودّع دنياه الى الوطن الباقي بقاءَ السموات والأرض ، الى جوار الله . ومات أوّل مَن مات من المهاجرين بالمدينة !

وقبّله النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يبكي وعيناه تذرفان ، ووسّدَه الثرى ونفض يديه من ترابه ، ولكن ذكراه ظلّت حيّة في قلبه ؛ فلما مات ولده (إبرهيم) زوّده بالتحية الى الشهيد الغريب ، وودّع ولده الواحد وهو يقول : « إلحقْ بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون ! »

يا ابنَ مظعون ، فرغتَ من أمر الدنيا وآلامها ، بعد أن قضيتَ أيامك على الأرض تتقاذفك الفلواتُ من غربة الى غربة ، ولم تَبْكِ ، وبكتْ لك دموعُ النبوّة ؛ دموعٌ تُقدّمك الى الله يثيبك ، وتقدّمك الى التاريخ يترحّم عليك . وفي الوقت الذي يُسلَب الملوك فيه تيجانَهم ويُضع عليك التاج . . . !

طنطا محمد سعيد العريان

لجنة التأليف والترجمة والنشر

كتاب الطبيعة لأرسطو

أتمت لجنة التأليف طبع كتاب الطبيعة « لأرسطو » ترجمة الأستاذ الكبير « أحمد لطفي السيد بك »

وبه مقدمة بديعة للأستاذ « سانتهلير »

وقد طبع في مطبعة دار الكتب على ورق جميل ويقع في نحو ٤٥٠ صفحة من القطع الأكبر

وبهذا يكون ما أخرجه الأستاذ من كتب « أرسطو » ونشرته اللجنة ما يأتي :

	ص
كتاب الأخلاق لأرسطو في جزءين ثمنه	١٠٠
الكون والفساد « في جزء «	٤٠
الطبيعة « « «	٥٠

(وتطلب من لجنة التأليف ومن المكاتب الشهيرة)